

(١)

الميثاق الغليظ وضرورة الحفاظ عليه

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم : {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنًا وَحَفْدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ} ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله ، اللهم صلِّ وسلِّم وباركْ عليه ، وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين ، **وبعد :**

فقد اهتم الإسلام بالأسرة اهتماماً بالغاً يناسب مكانتها ودورها في بناء المجتمع ، فهي اللبنة الأولى في بنائه ، بها قوامه وقوته ، وفي ظلها تتلاقى مشاعر المحبة والمودة ، والسكن والرحمة ، وهي ركيزة البناء وعمارة الأرض ، فصالح الأسرة واستقرارها يعني صلاح المجتمع واستقراره ، وضياعها يعني ضياع المجتمع وانهاره .

لذا حرص الإسلام حرصاً شديداً على سلامة الأسرة وحمايتها ، فحثَّ على بنائها بناءً سويًا من خلال الزواج الشرعي ، الذي هو آية من آيات الله (عز وجل) ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى : {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} ، بل جعله سنة من سنن الأنبياء ، فقال سبحانه : {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رَسُولًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً} ، وهو كذلك سنة من سنن النبي (صلى الله عليه وسلم) ، ففي الحديث : (... وَأَنْزَوْجُ النِّسَاءِ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي).

وإذا كان الزواج هو الطريق الشرعي لاستمرار الحياة البشرية فإن عقد الزواج من العقود المهمة في الإسلام ، ولأهميته وصفه الحق سبحانه وتعالى بالميثاق الغليظ ، فقال تعالى : {وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ

(٢)

شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا * وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا}، والمراد بالميثاق الغليظ هنا : هو العهد الذي أخذ للزوجة على زوجها عند عقد النكاح ، وما يتضمنه من حق الصحبة والمعاشرة بالمعروف ، وغير ذلك مما أقرّ به الرجل .

إن وصف العلاقة الزوجية بـ" الميثاق الغليظ" يدل دلالة واضحة على قوته وعظمته وأهمية الحفاظ عليه والوفاء به ، فعقد النكاح ليس عقداً عادياً ، إنما هو ميثاق ، وليس ميثاقاً عادياً ، إنما هو ميثاق غليظ ، حيث يقول الحق سبحانه : {وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا}، أي أنه بعقد النكاح يحصل هذا الميثاق الذي يقضي بحسن العشرة والمعاملة الطيبة ، وفي موضع آخر أطلق القرآن الكريم على الزواج {عُقْدَةَ النِّكَاحِ}، فهو أمر محكم شديد الأحكام ينبغي الحفاظ عليه ، وعدم حلّ عقده أو نقض ميثاقه إلا بحقه ، وفي الضرورة القصوى التي يستحيل معها استمرار الحياة الزوجية ، حفاظاً على الأسرة وكيانها ، وحفاظاً على الأبناء وحقوقهم ، والمجتمع وتماسكه.

والمتمأمل في وصف عقد النكاح بالميثاق الغليظ يجد أنه هو الوصف ذاته الذي وصف الله به الميثاق الذي أخذه على النبيين ، يقول سبحانه : {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا} . ولكي يؤتي هذا الميثاق الغليظ في النكاح ثمرته المرجوة لا بد من مراعاة عدة أمور :
*** حسن العشرة ودوام المودة بين الزوجين ، واحترام كل منهما الآخر ، فإن المودة والألفة هي قوام الأسرة ، ومن مظاهرها حسن العشرة ، ولزوم الطاعة فيما يرضي الله تعالى ، والتواصي بين الزوجين بالخير ، وحسن الخلق ، واحتمال كل من الطرفين للطرف الآخر ، فالحياة الزوجية لن تستقر على دعائم متينة من الحب والألفة**

إلا إذا كان هناك احترام متبادل بين الزوجين ، فأكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً ،
وخير الناس خيرهم لأهله.

والعلاقة الزوجية المستقرة هي التي تبنى على حُسن العشرة والمودة ، قال تعالى:
{وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا
كَثِيرًا}؛ لذلك قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : (لَا يَفْرَكُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً ، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا
خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ) ، فالعشرة الطيبة معيار مهم يجب ألا ينساه الزوجان ، وهذا ما أكد
عليه قوله تعالى: {وَلَا تَسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ} ، ونبينا (صلى الله عليه وسلم) يقول : (خَيْرُكُمْ
خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ ، وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى مَسْكِينٍ ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَى
أَهْلِكَ ، أَعْظَمَهَا أَجْرًا الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) لسيدنا
سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) : (وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجَهَ اللَّهُ إِلَّا أُجِرْتَ
عَلَيْهَا حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِي امْرَأَتِكَ) ، فالميثاق الغليظ يقتضي حسن العشرة بين
الزوجين وأن تقوم حياتهما على الصدق والوفاء ، وعلى الحب والتفاهم.

* **المحافظة على أسرار الحياة الزوجية** ، فبما أن الزواج رباط مقدس بين
الزوجين ، قائم على المودة والرحمة ، فلا بد أن تظل أسرار البيوت طي الكتمان ، لا
يطلع عليها الأهل والأصدقاء ، وقد حرص الإسلام على حفظ أسرار الحياة الزوجية ،
وعدم الحديث عنها من أي منهما في مجالسهما الخاصة أو بين أصدقائهما ، صونا
للعلاقة بين الزوجين ، ورعاية للأسرة ، وصيانة لكرامتها وتقوية لدعائمها حتى تستقر على
أسس سليمة ، فالأسرار الزوجية أمانة ، وإفشاؤها خيانة .

وقد أمر الإسلام كلا الزوجين أن يحفظ سر الآخر ، وأن يكون ساتراً لعيوبه ، محافظاً

(٤)

على خصوصياته ، حيث وصف الحق سبحانه وتعالى العلاقة بينهما باللباس ، فقال سبحانه : { هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ } ، ذلك أن كلا الزوجين يسكن إلى صاحبه ، ويكون من شدة القرب منه كالثوب الذي يلبسه ، لذا لا يجوز لأي من الزوجين أن يفشي سر صاحبه ، فنبينا (صلى الله عليه وسلم) يقول : (إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْأَمَانَةِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الرَّجُلَ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ وَتُفْضِي إِلَيْهِ ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ مِنْ أَشْرِّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَرْئِيَّةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ الرَّجُلَ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ وَتُفْضِي إِلَيْهِ ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا) . فعلى كل من الزوجين أن يحافظ على أسرار بيته ، حتى لا يترتب على إفشائها ضرر على الأسرة كلها ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ) ؛ لأجل ذلك يتطلب الميثاق الغليظ أن يحفظ كل من الزوجين أسرار الحياة الزوجية ، لأنها رباط مقدس به تُبنى الأسرة ، ومن ثم يُبنى المجتمع السليم .

*** الإحساس بالمسؤولية تجاه الأبناء ، وأنهم أمانة يجب الحفاظ عليها ، وإدراك**

أن الطلاق قد يتسبب في ضياعهم وتشردهم ، يقول نبينا : (صلى الله عليه وسلم) : (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ فَالْإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) ، كما أن الإسلام يُحمّل الوالدين مسؤولية حفظ الأبناء ، حيث يقول (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ اللَّهَ سَائِلٌ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ، أَحْفَظَ أَمْ ضَيَّعَ ، حَتَّى يَسْأَلَ الرَّجُلَ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ) ، فإنه قد جعل العناية بهم والإنفاق عليهم باب خير كبير ، فقد مرَّ على النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) رَجُلٌ ، فَرَأَى أَصْحَابُ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) مِنْ جَلْدِهِ وَنَشَاطِهِ مَا أَعْجَبَهُمْ ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَوْ كَانَ هَذَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى

(٥)

وَلَدِهِ صِعَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنْ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يَعْفُهَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ رِيَاءً وَتَفَاخُرًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ).

وحين لا يقدر الإنسان مسؤوليته تجاه أبنائه فيهملهم أو يضيعهم أو يتوانى في الوفاء بحقهم في التربية والإنفاق فإنه يبوء بذنوب عظيم ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَعُولُ).

*** إدراك خطورة الطلاق بنقض الميثاق الغليظ ، وعدم التهديد بالطلاق والتلاعب**

به وعدم التسرع في طلبه أو التسبب فيه ، فقد قال نبينا (صلى الله عليه وسلم): (أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا طَلَاقًا مِنْ غَيْرِ بَأْسٍ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ)، وقال (صلى الله عليه وسلم): (لَيْسَ مِمَّا مِنْ خَبَبِ امْرَأَةٍ عَلَى زَوْجِهَا أَوْ عَبْدًا عَلَى سَيِّدِهِ) وخب: خدع وأفسد، فإذا وقع الطلاق من غير ضرورة انهارت الأسرة ، وتشرد الأبناء.

فالميثاق الغليظ يتطلب المحافظة عليه ، وأن يدرك كل من الزوجين خطورة الطلاق ، فالطلاق ليس لعبة يلعب بها أحدهما ويهدد بها الآخر في كل كبيرة وصغيرة ، كما يتطلب الميثاق الغليظ أيضا أن يتحمل كل من الزوجين الآخر ، وأن يصبر عليه ، ويرضى بما قسم الله تعالى له .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام :

إذا كان الزواج هو الطريق المشروع لاستقرار الأسرة فإنه قد تحدث بعض المشكلات التي تهدد استقرار الأسرة وبنیان المجتمع ، وعلى رأسها ظاهرة الطلاق ، التي قد ينتج عنها آثار سلبية أخطرها تشرذم الأبناء وضياعهم ، لذا يجب أن نأخذ الحذر من الأسباب المؤدية إليه ، ومن أهمها :

الاختيار غير المناسب ، فالإسلام قد وضع ضوابط وأسساً يجب أن يقوم عليها اختيار كل من الزوجين للآخر ، في مقدمتها الدين والخلق، يقول نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (تُنكِحُ الْمَرْأَةَ لِأَرْبَعٍ لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا فَاطْفَرُ بِذَاتِ الدِّينِ تَرَبَّتْ يَدَاكَ) ، ويقول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِذَا جَاءَكُمْ مِنْ تَرْضُونَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ) ، فعندما يضعف الدين والخلق تختل الموازين وتضطرب أمور الحياة .

ومنها : إكراه المرأة أو الفتاة على الزواج ؛ لتحقيق مصلحة مادية ، أو بلوغ مطمع دنيوي ، فقد جاءت فتاة إلى النبيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقَالَتْ : إِنَّ أَبِي زَوَّجَنِي ابْنَ أَخِيهِ لِيَرْفَعَ بِي حَسِيَّتَهُ ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) الْأَمْرَ إِلَيْهَا ، فَقَالَتْ : " قَدْ أَجَزْتُ مَا صَنَعَ أَبِي ، وَلَكِنْ أَرَدْتُ أَنْ تَعْلَمَ النِّسَاءُ أَنَّ لَيْسَ إِلَيَّ الْبَابُ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ " .

ومن الأمور التي تسهم في ارتفاع نسبة الطلاق : زواج القاصرات اللاتي لا يعرفن شيئاً عن مفهوم الزواج ، وحقيقته ، وأهدافه ، والحقوق والواجبات المتبادلة بين الزوجين ، فهذا النوع من الزواج معول هدم للأسرة ، حيث ينتشر الطلاق بسبب فقدان المودة والمحبة والسكن بين الزوجين، وتتمزق أواصر الأسرة ، كما أنه يعمل على

(٧)

إعاقة تقدم المجتمع بما ينتج عنه من أطفال وأجيال تهدم ولا تبني ، وتفسد ولا تصلح ،
وتخرّب ولا تعمر .

ومنها : غياب الدور التوجيهي الصحيح للآباء والأمهات ، فإن ابتعاد الآباء عن
رعاية أبنائهم وإلقاء كل طرف اللوم والمسئولية على الطرف الآخر يتسبب في ضياع
الأبناء وتشرد الأطفال ، وحينئذ تنهار الأسرة وينحل رباطها ، مما يؤثر سلبا على
المجتمع وتماسك لبناته .

فاللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه
واجعلنا ممن يصون العهد ويفي بالوعد ، وانشر على بيوتنا السعادة والسكينة
والأمان والموودة والرحمة والاطمئنان ، وهيب لنا من أمرنا رشداً.